مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الصَّفِّ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الصّف

أ. د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الصف

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ ﴾

انطلقت سورة الصف بمثل ما ابتدأت به سورة الحديد، وسورة الحشر، بإظهار وبيان تنزيه مخلوقات الله تبارك وتعالى لربها جَلَّ جلاله عن كل ما لا يليق بعظمته وجلاله عَزَّ في علاه. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: سبح بالذكر والتنزيه لله رب العالمين جميع من في السماوات والأرض، ليشمل ذلك جميع المخاليق، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع عن الأرض من خلقه. وكذلك الأرض وما خُلِق عليها وفيها، من الإنس والجن والدواب، والحيوانات، وما حوته من بحار ومحيطات وأنهار، وما بداخلها من أنواع الحوت والأسماك والأصداف. فلا شيء إلا وهو يسبح لله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من الملائكة والأناسي، والجان، والحيوان، حتى الجماد[١] وبهذا يشمل الكافر من الجان والناس، لأن دلالة التسبيح تشمل حتى الخضوع، فمن كفر من الجن والإنس، فهوا خاضع ذليل لله تعالى. ولذلك قال أهل العلم: أن من دلالات تسبيح الجمادات خضوعها لله تعالى[٢] وهذا من غزارة المعنى الذي أفاد قوة وقهر الله تعالى لكل شيء. فشمل التسبيح الخضوع والخنوع، بأنه تحت قبضة الله تعالى، كما هو التنزيه له عَزَّ وجل عن كل ما لا يليق به وبعظمته تبارك وتعالى.

وقد ذكر عَزَّ وجل في سورة الإسراء ما يبين تفاوت التسبيح بين المخلوقات، فكل له تسبيحه المناسب له، وأن كل شيء يسبح له عَزَّ وجل، ولكن لا يدرك الإنسان فهم تسبيح مخلوقاته جَلَّ شأنه، حيث قال تبارك وتعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ فالسماوات السبع، والأرض تسبح وتنزه الله تعالى، بل وكل من في

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩/٤-٣٠)

السماوات والأرض يسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً. وهو يجمع التسبيح بالتنزيه، والحمد والثناء الذي يتناسب مع حال وهيئة تلك المخلوقات، وتسخير الله تعالى لها. ولكنكم أيها الناس لا تفقهون وتفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قَصُرَ علمه عنه، فيما ليس له به حق. وهذ الإخبار من الله تعالى عن عظيم ملكه، وطاعة خلقه له، ما يفيد ويقرر بأنكم أيها المشركون تُقَدِّمُون الطاعة لغيره عَزَّ وجل، ممن تزعمون زوراً وبهتاناً أنهم شركاء، فليس له شريك في ملكه، وكل شيء هو ملكه عَزَّ وجل، ويسبح وينقاد له. وبالتالي فإن خلائقه جميعاً طائعة له تبارك وتعالى، وزيادة عن الطاعة تسبح وتنزه الله رب العالمين عن كل نقص.

وقد خص سبحانه وتعالى أهل الأرض باسم موصول ﴿ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأما فاتحة سورة الحشر، فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية، وهي خذلان بني النضير، فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم[١] بينما في سورة الحديد، وردت بدون الاسم الموصول ﴿ وَمَا ﴾ قال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لإيراد الشمول من غير تخصيص. وفي سورة الحشر وسورة الصف ورد العموم مع التخصيص. مما يدل على دقة وعظمة البيان، وقوة توافقه مع مقاصده، ليظهر الإعجاز البياني كما هو الإعجاز في خلقه وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم أعقب ذلك البيان إظهار كمال عزته وحكمته سبحانه وتعالى التي تستوجب تسبيحه عَزَّ في علاه، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. وأما الصفة الثانية: فهو ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٩٢/١١)

كما يفيد ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه ولأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أُكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فهو عزّ وجل العزيز لا غيره، وأنه هو المتصف بكمال العزة والحكمة. وقد حصر سبحانه وتعالى كمال العزة والحكمة له جَلَّ في علاه. كما أفادت بُنية ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِمَ بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع كتابه القرآن العظيم، وشرعه الحكيم. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وبعد أن أوضح رب العالمين تمجيد وتنزيه جميع المخلوقات لربها جَلَّ جلاله، وبيان عزته وحكمته تبارك وتعالى ينتقل البيان الكريم إلى معالجة ادعاء الإنسان بفعل الخير قولاً وعدم تطبيقه فعلاً. فقال سبحانه وتعالى مخاطباً المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ يا من آمنتم بربكم، وصدقتم برسولكم، وعملتم بدين ربكم، حتى أصبح الإيمان صفة لكم، لماذا تقولون من الخير ما لا تفعلون؟ سؤال استنكار لمن هذا نهجه في المدائح، بأن يحث غيره على الخير ولا يفعله، أو يمدح ويُثني على الخير ثم يُحجم عما امتدحه، فلا يفعله، فورد النهي ليكون فعله مطابق لقوله. وهو المنهج والأدب الإسلامي الرفيع.

وبالرغم من أن الآية تحمل النهي والعتاب والزجر عن ذلك الفعل، إلا أن الله تعالى ابتدأ المخاطبة لهم بالمدح والثناء. فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فلم يجعل تبارك وتعالى ذلك الموقف من أحدهم أو بعضهم أن يلغي به إيمانهم. مما يدل على أن الخطأ لا يزول به الأصل، الذي هو الإيمان. وهذا من عظيم حكمته جَلَّ في علاه.

مما يفيد ويعلم العباد أهمية التوازن في التعامل، وأن الخطأ لا يعني إسقاط صاحبه من دينه، أو ما عُرف به وعنه من المكارم. بل يجب الحكمة في التعامل، وأهمية احتواء الغير بالمعالجة والبيان، وتصحيح الأفهام، والموعظة التي يحصل بها الحق والخير. وهو المنهج النبوي الكريم عندما توقفت ناقته القصواء، ولم تتحرك، فقال عليه الصلاة والسلام عنها (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلُق)[1] أي: ما امتنعت القصواء، وليس ذلك من عادة أخلاقها. فحكم صلى الله عليه وسلم على ناقته بما اعتاد منها، وليس بما طَرَأ عليها. مما يعلم العدل في الحكم، وعدم استصحاب الحكم الخاص على العام. بل قصر الحكم على موضعه.

وقد افتتح الله تعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بما يفيد التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[2] فهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه لمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

ومن الفوائد السلوكية العملية: إذا كان الله سبحانه وتعالى يفتتح خطابه وتوجيه للمؤمنين بأحسن وأعظم الألقاب، وهو ربهم ومالكهم، وهم عبيده، وتحت سلطانه عَزَّ وجل. فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٧٣١)

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

القلوب. ويفيد كذلك بالقياس عليه أهمية افتتاح الكلام في مخاطبة الناس بأحسن الكلام وأجله وأرفعه، فإنه أدعى للاستماع والقبول، والتفاعل الجميل، والبعد عن الجفاء في الخطاب.

ثم بعد هذا المدح الكريم يأتي النهي، بأسلوب السؤال الاستنكاري، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ يا من آمنتم بربكم، وصدقتم برسولكم، وعملتم بدين ربكم، حتى أصبح الإيمان صفة لكم، لماذا تقولون من الخير ما لا تفعلون؟ فإن حقائق الإيمان تتطلب منكم المصادقة والموافقة بين القول والعمل، فكونوا كما يجب في ذلك. فهو سؤال استنكار لمن هذا نهجه في المدائح، بالحث على الخير، ومدحه والثناء عليه ثم الإحجام عما امتدحه فلا يفعله بالتطبيق لِمَا يقول. حتى يكون قوله مطابق لفعله. وفي هذا تعديل وتصحيح لأفكار ومنهج القول والفعل، لينقلهم سبحانه وتعالى بهذه الآداب من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام الراقية. ويكون ذلك نهجاً وقاعدة لجميع المسلمين. فمضمون هذا التوجيه الكريم هو المعالجة العملية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. لتكون قاعدة عامة لعموم المسلمين.

ثم يُعَظِّمُ اللهُ تبارك وتعالى هذا الصنيع بتجريمه تجريماً مشيناً، ليقتلعه من أخلاق المؤمنين، فتحصل لهم التربية الإسلامية الصافية. فقال تعالى ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ عَظُمَ بغضاً عند الله ربكم أن تقولوا بألسنتكم ما لا تفعلونه وتطبقونه. فمن بلاغة البيان أنه بدأ بتضخيم الفعل وتجريمه أولاً بهذا الوصف الشنيع، فقال تعالى ﴿ كَبُرَ ﴾ أي: عَظُم وتعاظم، لإفادة المبالغة في ضخامته وحجمه ﴿ مَقۡتًا ﴾ بغضاً وكرهاً، ثم منزلته ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إنه مبغوض عند ربكم الذي آمنتم به، فهو غاية الذم لهذا الفعل، لعظيم بغض الله تعالى له.

وبعد تعظيم قبح هذا الفعل انتقل البيان الكريم إلى تعيينه ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ أي: هو قولكم بالمدح والتمجيد للمحامد من غير أن تفعلوها كما امتدحتموها. فإنه يلزم مَن مدح ممدوحاً تحلى به، وطبقه. فإن لم يطبقه ويعمل به فإنه قد قال قولاً بغيضاً وممقوتاً عند الله ربكم سبحانه وتعالى. مما يفيد وجوب الابتعاد عن ذلك وجوباً قاطعاً. ليربي في المؤمنين التوافق في مسلكهم بين القول المحمود وتطبيقه بالفعل والعمل به. لينتقل به المؤمنون الى الدرجات العالية من مكارم الأخلاق. وبالفعل قد انتقل الصحابة رضي الله عنهم إلى مضرب الأمثال في جميع خصال الخير، فكانت حياتهم مدرسة ومثالاً لذلك. فرضي الله عنهم وأرضاهم. مما يفيد نعمة نزول القرآن مفرقاً، ليعالج قضايا الأمة أثناء حدوثها أو نشأتها، ليكون ذلك مساراً ناجحاً ودائماً للأمة على مدى العصور. لتظهر عظمة حكمة الله تعالى في نزول القرآن خلال بعثته عليه الصلاة والسلام، على مدار ثلاث وعشرين سنة.

وكذلك من دقائق البيان أن الآية الكريمة لم تحصره في شيء محدد، بل ورد السياق عاماً، ليفيد عموم الحكم به، من غير حصر له في سبب محدد. فكانت الدلالة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ حسب سياق الآية الكريمة. حتى وإن كان حدث لذلك ما جعل الله تعالى يُنَزِّل فيه قرآناً. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أقوالاً عن سبب نزول هذا التوجيه الكريم. فقد قيل: أن بعض المؤمنين تمنوا معرفة أفضل الأعمال، فلما عرفوها قَصَّروا، فعوتبوا. وقيل: أن أحدهم كان يفتخر من أفعال الخير التي لم يفعلها، فنزلت الآية. وقيل: كان بعض المنافقين يَعِدُون المؤمنين النصر، وهم كاذبون. ورجح الطبري القول الأول: أنه عُني بها الذين قالوا: لو عرفنا أحب الأعمال إلى الله لعملنا بها، ثم قَصَّروا في العمل بعدما عرفوا. وذكر ما ملخصه أن ليس للقول الأخير مكاناً البتة، لأن المنافقين ليسوا بمؤمنين[١] فالخطاب ورد للمؤمنين على وجه العموم، من غير تخصيص لواقعة أو فعل معين ومحدد، فالعبرة الدلالية إذاً: بعموم اللفظ لا بخصوص السبب حسب سياق الآية الكريمة.

ثم يوجه الله تعالى المؤمنين إلى ما يجب أن يكونوا عليه في القتال. فقال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ إن الله ربكم يحب من المؤمنين حين قتالهم في سبيله أن يكونوا متعاضدين ومتلاصقين ومتكاتفين كالبنيان. فتكون هيئتهم في الاصطفاف أمام العدو كأنهم حائط منيع، يشد بعضه بعضا. لما في ذلك من إرهاب العدو بتماسكهم وتعاضدهم. مما يبين أهمية إظهار القوة للعدو حتى في المظهر الذي يُرهبه. وقد عَزَّزَ سبحانه وتعالى هذا التعاضد بمحبته له تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ﴾ وأن دلالة وأثر قوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ﴾ تستثير قلوب المؤمنين نحو التطبيق والعمل بما يحبه الله تعالى في عباده من الامتثال.

ثم حصر سبحانه وتعالى هذا القتال في أن يكون في سبيله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ لينتفي به جميع ما ينافي الإخلاص له عَزَّ وجل. فكل جهاد لا بد أن يكون من أجل الله عَزَّ وجل. ثم وصف تبارك وتعالى لهم هيئتهم التي يجب أن يكونوا عليها في القتال، فقال جَلَّ شأنه ﴿ صَفًّا ﴾ وهو من الاصطفاف المنظم والمنتظم في المقاتلة. ثم لتقريب الهيئة لهم شبهه سبحانه وتعالى بالبنيان القائم المتلاصق. فقال تعالى ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فتكون هيئتهم في الاصطفاف أمام العدو كأنهم حائط منيع، يشد بعضه بعضا. لما في ذلك من إرهاب العدو بتماسكهم وتعاضدهم. وهذه دقة في التعليم، مع العناية بالهيئة، والقوة والتماسك، والتعاضد، وتقريب الصورة والهيئة لهم بالجدار القوي الذي لا يستطيع أن يخترقه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٦٠٦-٦٠٩)

أحد، ولا أن يتطاول عليه متطاول، مهما بلغ من القوة والإرادة. وهذا من دقة البيان وقوة تمثيله بتصوير هيئتهم وتماسكهم وتعاضدهم. فتعاظم البيان مع تعاظم التوجيه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى الإعلام والإخبار بأن من يتعرض للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأي نوع من الأذى فإن عليهم أن يعتبروا بما صنع الله تعالى من قبل بالذين آذوا رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام. فقال اللهُ تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ واذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذيك من المنافقين واليهود وغيرهم ما صنع الله تعالى بالذين آذوا رسوله موسى عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا توجيه عظيم لمن يؤذي رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه سينالهم ما نال الذين آذوا موسى عليه الصلاة والسلام، حيث أهلك الله تعالى فرعون وجنوده. فعلى قوة فرعون وكثرة جنوده وأعوانه فقد أهلكهم الله تعالى، ونصر رسوله موسى عليهم، ومَكَّنَهُ ومَن معه من بني إسرائيل من أرض مصر. واذكر لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ حين خاطب موسى قومه بأسلوب الوعظ واللطف، منادياً لهم ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ مخاطبهم بأحسن الخطاب. قائلاً لهم ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ فنسب نفسه إليهم، بأنه منهم. ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ يا من أنتمي إليهم، بما يفيد الحرص عليهم، ومحبة الخير لهم، لأنه جزء منهم، مما يبين أهمية اللطف في الوعظ.

ثم يتوجه إليهم موسى عليه الصلاة والسلام بسؤال مملوء بالتعجب والاستنكار من إيذائهم له بالرغم من أنه لم يعترضهم بأذى، أو استعلاء ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ ما الذي يدفعكم لإيذائي، من غير سبب مُوجِب

لذلك؟ بما يفيد أنه لم يتسبب لهم في شر، وإنما جاءهم بما هو خير لهم في الدنيا والآخرة. فلم يأتهم إلا بدين الله تعالى، مع الأدلة والبراهين والحجج. بل من قوتها أنهم أدركوا وعرفوا أنه رسول من الله إليهم ﴿ وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ ﴾ وقد تحقق لكم من الأدلة والبراهين والآيات والحجج أني رسول من الله تعالى إليكم. وهو الشأن المماثل للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يأتهم إلا بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، فقد جاءهم بدين الله تعالى. وقد أيقنوا بأنه رسول من الله تعالى، كما أيقن قوم موسى عليه الصلاة والسلام بأنه رسول من الله تعالى.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى إيضاح ما جاءهم من عذابه عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ ﴾ أي: فلما مالوا عن الحق، ومحاربتهم له، عاقبهم الله تعالى ابتداء بأن ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ أمال وأحرف قلوبهم عن ابتغاء الحق. جزاء وفاقا. بحيث يموتون على كفرهم. فحرمهم نعمة الدين الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق للهداية الخارجين على دينه. وسماهم الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ لأن الفسق هو الخروج عن الشيء. فقد خرجوا عن دين الله تعالى، وإن الله تعالى لا يوفق من خرج عن دينه، فمن ترك هداية الدلالة بعد أن تبينت واتضحت له، وحاد وخرج عنها، فإن الله تعالى لا يتولاه بتوفيقه للإيمان، لأنه آثر الكفر على الإيمان والطاعة، فخرج عن طاعة ربه سبحانه وتعالى. وبالتالي فإن كل من عرف دين الله تعالى، وحاد عنه، وعن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لا يوفقه لإصابة الخير والنجاة. مما يفيد أهمية الحذر من الاستكبار والحسد، ومصادمة دين الله تعالى. وهذا تحذير من الله تعالى لكل من يشاقق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن عليه أن يتأمل ما حصل لقوم موسى عليه الصلاة والسلام من الهلاك بالغرق في البحر.

ثم يزداد البيان تأكيداً بما كان من عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. فقال تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ واذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم للجاحدين لك شأن عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام، حين قال لقومه بني إسرائيل أنه رسول الله إليهم بما جاءهم به من كتاب الإنجيل. وأنه مُؤيِّد لما قبله من التوراة، فلا يعارضها ﴿ مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾ أي: مصدقاً ومؤيداً لِمَا تقدم عليه في النزول، وهي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى، عليه الصلاة والسلام، أي لا يعارضها.

فأفاد هذا التوافق أنه رسول من الله تعالى. فلو جاءهم بما يخالف التوراة لكان ذلك إثبات بطلان نبوته ورسالته إليهم عليه الصلاة والسلام.

بل وكذلك ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾ فكما أنني مصدق لكم بما سبق من قبلي من المرسلين. وبما بشرت به التوراة من نبوتي. فإني كذلك أخبركم ببشارة سارة بمن سيأتي من بعدي من المرسلين. فإنه يأتي من بعدي رسول من الله تعالى، اسمه أحمد. وهو نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحمد هو أحد أسمائه عليه الصلاة والسلام. وقد وصف عيسى عليه الصلاة والسلام هذا الإخبار بأنه بشارة. والبشارة هي الإخبار بما يسر من الخير. وقد كان من واجب أهل الكتاب أن يؤمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم بناء على ما ورد في كتبهم. ولكن الاستعلاء والحسد يمنعان الإنسان من الخير.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من بني إسرائيل مع عيسى عليه الصلاة والسلام من الجحود والكفر ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فلما جاءهم بالمعجزات من الحجج والبراهين الواضحة البينة، ولم يجدوا سبيلاً للتكذيب أمام هذه الحجج الباهرة ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فوصفوا تلك الآيات الباهرة بأنها سحر، بل من قوة زعامتهم للباطل أنهم أكدوا زعمهم وباطلهم بأنه سحر ﴿ مُّبِينٞ ﴾ أي: واضح وظاهر وجلي بائن، فلا شك ولا مرية في ذلك. فقد حصروا الآيات والحجج في السحر، بما يفيد الجزم بأنها لا تخرج عن السحر حسب زعمهم. فمن قوة جحودهم أن أضافوا إلى ذلك تأكيدهم بأنه سحر واضح ﴿ مُّبِينٞ ﴾ أي: واضح وجلي وظاهر الوضوح بأنه سحر. مما يدل على قوة بهتانهم، وقوة افترائهم الكذب على الله تعالى، وشدة الإعراض منهم، والصدود عن جميع آيات الله تعالى، مهما كان نوعها وقوتها ووضوحها.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى تلك الآيات والحجج في سورة آل عمران. فقال عَزَّ وجل أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لهم ﴿ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ مما يفيد أن كفرهم هو كفر عناد، واستكبار، وتطاول على الحق الواضح، المبين. وهذا تحذير من الله تعالى لكل من يشاقق الرسول صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد إياكم أن تكونوا مثل أولئك المكذبين بعيسى عليه السلام، فاحذروا من ذلك أشد الحذر. فإنها موعظة عظيمة من العليم الخبير.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن المكذبين السابقين برسلهم، والمكذبين من بعدهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بأنهم أظلم العباد بما كان منهم من الافتراء والجحود والتكذيب مع ما ظهر لهم من الحق بالآيات والحجج والبراهين الساطعة. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فلا أحد أشد ظلماً من أي أحد أو قوم افتروا الكذب على الله تعالى، بتكذيب المرسلين، وبجحودهم للأدلة والحجج والبراهين، ونعتها ووصفها بالسحر، والكهانة، أو الشعر، أو غير ذلك من الوصف والنعت الكاذب. فإنه لا أحد أشد ظلما من أن يفتري على الله تعالى الكذب، بتكذيب المرسلين. بما يفيد أن من كذب بآيات الله تعالى وجحدها فإنه قد افترى واخترع الكذب من نفسه على ربه تبارك وتعالى.

وقد ورد البيان الكريم على صورة وهيئة سؤال ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ ليفيد الاستنكار، والتشنيع العظيم على من افترى الكذب على الله جَلَّ جلاله، وخص الافتراء على الله تعالى بأنه أكبر أنواع الكذب، وأعظمه ذنباً، بأن يقول الإنسان لآيات الله تعالى وحججه سحراً، أو شعراً، أو غير ذلك من النعوت الباطلة. فيقول على الله تعالى الكذب بالافتراء على آياته البينات الواضحات من الحجج والبراهين. ويمتد بساط المعنى والدلالة على الافتراء على لله سبحانه وتعالى بإشراك غيره معه، إضافة إلى ما يترتب على ذلك من تشريع عبادة غيره من المخلوقات والمصنوعات، أو التوسل بغيره عَزَّ وجل، أو من خلال معبوداتهم، فقد عَظُم جرمهم.

وهو سؤال يستثير الفكر نحو التأمل في جرم هؤلاء ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ فهل هناك من هو أكثر ظلماً للحق، وللحقيقة، ولنفسه، ولتوحيد الله تعالى، وللمرسلين ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ممن انتحل الكذب على الله سبحانه وتعالى. وقد ورد الافتراء على جهة العموم، ليشمل كل افتراء، بالتكذيب، أو الوصف الكاذب، أو بالتحليل أو التحريم، ومنها ما هو متعين بسياق الآية الكريمة بأنه تكذيب آيات الله تعالى.

وورد هذا الافتراء منهم في الوقت الذي يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ فإنه تناقض عظيم وعجيب، أن يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم العباد إلى الخير، فيقابلونه بالتكذيب والاستهزاء، والافتراء على آيات الله تعالى بما لا يليق بها. مما يبين أن الاستعلاء والكبر، والحسد، عوامل تؤدي بالإنسان إلى التهلكة في الدنيا والآخرة. وأنها أعظم أسباب المخاطر.

ثم يعظهم سبحانه وتعالى بما يحفزهم ويرغبهم في الإيمان، ويحذرهم من الإصرار على العناد والاستكبار على الحق. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق القوم الذين يظلمون

الحق، بإنكاره وجحوده. فاحذروا أن يحجب الله تعالى عنكم هدايته، فلا يوفقكم لدينه، بأن يطمس على قلوبكم، جزاء وفاقاً لظلمكم. فقرر لهم عَزَّ وجل أصلاً من أصول العقاب لمن أصر على الظلم، مع بيان الحق ووضوحه. وهذا غاية الوعظ والتحذير والتهديد وإقامة الحجة. مما يبين لطف الله تعالى في عدم الاستعجال على الظالمين بالعذاب، لحلمه ورحمته سبحانه وتعالى، ولكنه عَزَّ وجل إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً وبيلا.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن غايات وأهداف المكذبين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يريد الذين يحاربون دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يخمدوا ويطمسوا نور الله تعالى، الذي هو دينه وكتابه القرآن العظيم، بما يفترونه من الكذب والبهتان والتكذيب، ولكن الله تعالى الذي له الحكم والسلطان متكفل بإظهار كتابه ودينه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ولو كره الكافرون، وبذلوا أقصى ما يستطيعون.

فقد أوضحت الآية الكريمة قوة مراد أعداء دين الله تعالى، وأهدافهم وغاياتهم التي يسعون إلى تحقيقها، وقد جاء البيان بالكشف عن أطماعهم ونواياهم بدلالة الإرادة ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ التي جمعت بين الرغبة والغاية والعزيمة الجازمة، وبين التدبير العملي ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ ﴾ والاطفاء هو الإخماد إلى درجة الإنهاء والإجهاض عليه. لأن مفاد الإطفاء هو كتم النور بإخماده حتى لا يعود أبداً. كم هو حال اطفاء السراج، فلا إضاءة له.

وإيقاع هذا الإطفاء منهم على ﴿ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ وفي هذه التسمية ما يبين ويفيد أن دين الله تعالى نور للبشرية، وأنه نور في ظلمة الجهل التي يعيشون فيها، وأن القرآن نور، وشريعة الله تعالى نور، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم نور، وأنه عليه الصلاة والسلام يحمل هذا النور للعالم أجمع. مما يبين أن دين الله تعالى نور يُضيء طريق الهداية لمن تمسك به، فيُوصله إلى سعادة الدارين، في الدنيا والآخرة.

ومن دقائق البيان أن الإطفاء لا يكون إلا للنور، ولا يمكن إزالة النور إلا بالإطفاء. فجعل الله تعالى اطفاءه عليهم مستحيل، بمنع قدرتهم على ذلك أبداً. وجعل تبارك وتعالى قوة مرادهم لا تعدوا أقوالهم الفاسدة بالطعون الكاذبة. فقال تعالى ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ فلا يعدوا ولن يتجاوز مرادهم أفواههم المعبرة عن نواياهم. فقد أدركوا أن أقصى ما يمكنهم هو الطعون في الدين، وإثارة الكذب لإبعاد الناس عن دين الله تعالى. ولذلك رموه بالسحر والشعر، والكهانة والجنون. فهي مواجهة من أهل الباطل لنبي الرحمة، وللنور الذي جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عن ما قضى به جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ فإن الله تعالى مُكَمِّل نوره بالاستمرار والاتمام والعلو. بما يفيد استكمال ما بدأ من نشر الدين. وبالتالي فلن يستطيع أحد، ولو

اجتمع المجرمون كلهم على محاربة هذا الدين، فلن يتمكنوا من صده وإخماده، بما يفيد أنه سينتشر بين العباد ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ولو بلغ ما بلغ الكره من الكافرين لدين الله عَزَّ وجل. مما يبين أن سلطان الله تعالى فوق كل سلطان، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه إذا أراد شيئاً فلا يستطع العباد منعه ولا الوقوف ضده أبداً. مما يحذر به الأعداء. ويعزز به إيمان المؤمنين، من أنه لا خوف عليكم وعلى دين ربكم. كما يعزز لدى المؤمن قوة الاعتماد والتوكل على الله تعالى. وأنه إذا أراد لأحد من عباده أمراً فلن يمنعه مانع. وإذا منع عنه شيئاً فلن يجلبه له كائن من كان. فلا يكون في الكون إلا ما شاء الله سبحانه وتعالى.

ثم يزداد التأكيد القطعي من الله تعالى على ما بينه مِنْ مُضي وعلو وانتصار دينه على كل من كره الدين وحاربه. فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

إن الذي أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو الله القوي العزيز ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ هو عَزَّ وجل لا غيره الذي أرسل هذا الرسول صلى الله عليه وسلم. بما يفيد أنه طالما أن المرسل هو الله تعالى فإن أمره وشأنه كائن كما أمر وقضى عَزَّ في علاه، فلن يستطيع أحد أن يقف أمامه أبداً. وفي هذا بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بانتصارهم على الأعداء، مهما بلغت عداوتهم وقوتهم.

وقد أوضح وبين تبارك وتعالى مضمون الرسالة بأعظم وصف وبيان. فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فالوصف الأول: هو ﴿ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ والهدى هو الحق الذي يسير بمن اتبعه إلى الطريق والمنهج الصحيح، والنور الذي يُبعده عن الشر، ويفضي به إلى كل خير في الدنيا وفي الآخرة. فيجعله في الدنيا على نهج مضيء بنور الحق وطمأنينة النفس. وفي الآخرة يجعله في جنة عرضها السماوات والأرض. وبما يفيد أن من ابتغى الهدى في غيره فقد ضل سواء السبيل. فلا سبيل للهدى إلا في دين الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والوصف الثاني: هو أنه ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فهو الدين الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى للعباد. وبالتالي هو ناسخ لجميع الأديان، ومُبطل لها. فمن أراد الدين الحق فعليه بالإسلام. وأن الله تعالى لا يقبل مِن عباده إلا هذا الدين الحنيف.

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه سَيُظهر ويرفع شأن هذا الدين من بين جميع الأديان ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ليكون هو الأظهر والأبرز والأعلى من بين جميع الأديان. وهو ما تحقق ولله الحمد. فإن دين الإسلام هو الأظهر والأبرز والأكثر انتشاراً من بين جميع الأديان، فليس هناك دين ولا ملة تعلو عليه أبداً، أو حتى

قريبة منه. فإن عدد المسلمين أكثر من عدد أصحاب الأديان الأخرى. وقد أكد تبارك وتعالى هذا الظهور بأنه حتماً ورغماً عن شنآن كل كاره له. فقال تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ بما يفيد أن بغض وكره الكارهين لهذا الدين لن يمكنهم أبداً من تحقيق مبتغاهم ومآربهم. وفي دلالة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ما يفيد: أنه مهما كان الكره وقوته من أهل الشرك والبدع، فإنه لا يمكنهم إيقاف نشر هذا الدين وعلوه وظهوره. مما يبين قوة هذا الدين، وأن الله تعالى ناصره، ومثبت أهله المؤمنين وناصرهم على من بغى عليهم. وإنما يلزم المؤمن قوة الاستقامة، ومناصرة هذا الدين والثبات عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

ببعد أن ضرب الله تعالى الأمثال للناس، وبيانه لانتصار دينه، والكشف عن مراد أهل الكفر والشرك، يخبر ويبين سبحانه وتعالى بما يجب على المؤمنين. فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هل أخبركم بتجارة رابحة بربح عظيم، فتنجيكم من عذا ربكم الأليم الشديد. وهو سؤال يشد الانتباه، ويحفز الذهن والقلب على متابعة ما تحبه النفس وتهواه من الربح العظيم. واستهله تبارك وتعالى بالنداء للمؤمنين. وبرتبة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التي تستثير النفس المؤمنة نحو التطلع إلى ما بعد النداء، الذي يحمل في طياته المدح والثناء بما آمنوا وصدقوا به. ثم يُلحق بهذا النداء السؤال الذي يثير التطلع والتشوق لمعرفة تلك التجارة ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ هل تريدون من ربكم أن يدلكم ويهديكم إلى تجارة. فجعل تبارك وتعالى العمل الذي سيذكره للمؤمنين بمنزلة ومكانة التجارة. لأن التجارة قائمة على المعاوضة، ومرتبط بها الكسب والربح والنماء، وأنها مماثلة لحركة التجار، بأن تُقدم شيئاً وتحصل على شيء أربح وأكثر وأثمن مما قدمت، مما تبحث عنه. فتحصل بتلك التجارة على ما تريد من المرابحة والمكاسب التي تنشدها. وأيضاً على الأثمان المتفاوتة في مرابحها بحسب نوع السلعة التي يؤديها المرابح. وكذلك هم الناس في طاعة الله تعالى متفاوتون

ومتباينون في اجتهادهم، فكل ينال من المكاسب والعوض ما يناسب اجتهاده. فكان مثالاً غاية في التعليم والتوضيح للمقصد والمعنى.

ثم بين سبحانه وتعالى ثمن هذه المعاوضة الربحية قبل أن يبين ما هيتها، ليزداد التشويق والتطلع عند الْمُخَاطَب. مما يبين قوة أسلوب القرآن الكريم في شد الانتباه. فقال تعالى ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وينجيكم الله تعالى بهذه التجارة من العذاب الأليم. وفي هذا مزيد من التشويق والتطلع لمعرفة هذه التجارة. مما يبين ويعلم المؤمن في الوعظ والإرشاد والتعليم أهمية التشويق، وأثره في متابعة البيان.

ثم بعد هذا التشويق المتسلسل والمتدرج ينتقل السياق الكريم من الله العزيز الحكيم إلى بيان هذه التجارة، فقال تعالى ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فأول بنود تلك التجارة هو تحقيق الإيمان ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ تصدقون بالله تعالى رباً وإلهاً واحداً لا شريك له، وبأسمائه وصفاته، وبجميع ما ذكره لكم ربكم سبحانه وتعالى. وكذلك تصدقون برسولكم محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، فتطيعوه فيما يأمركم وينهاكم، وتتابعونه في دينه كاملاً. وبالتالي شمل الإيمان: التصديق والمتابعة.

ثم نقلهم تبارك وتعالى إلى الجهاد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وتشاركون في إعلاء دين الله تعالى، بمجاهدة النفس في كل ما يجب فيه الجهاد ﴿ بِأَمْوَٰلِكُمْ ﴾ بدفع الأموال في تجهيز الجيوش، وفي غيرها مما يعلو به الدين. وكذلك تجاهدون بأنفسكم ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ليشمل الجهاد في الحرب، والجهاد في الطاعة، والجهاد في نشر هذا الدين. ودلالة ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ ﴾ تفيد مقاومة النفس، وحثها على القيام بما يجب للدين وفي الدين. وقد وردت بصيغة الفعل المضار المستمر. لتعطي دلالة الاستمرار والمتابعة في ذلك. وأنه أمر وشأن مستمر مع الإنسان المؤمن حتى يغادر الدنيا. فإن دين الله تعالى قائم على مجاهدة المؤمنين لأنفسهم في كل شأن وأمر يخص الدين.

ومن دقائق التوجيه الكريم استيعاب دلالة ﴿ بِأَمْوَٰلِكُمْ ﴾ كل ما يمكن الانتفاع به، ليستوعب النقود وغيرها من عموم النفع، كالسلاح في الجهاد، والخيل، والأطعمة، والمنتوجات الزراعية، والذهب والفضة، وغيرها. كما استوعبت دلالة ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ الجهاد في الحرب، والجهاد في الطاعة، والجهاد في نشر هذا الدين. وكذلك من بلاغة البيان في مجال معرفة خصائص النفس البشرية هو تقديم المال على النفس ﴿ بِأَمْوَٰلِكُمْ

﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾ وذلك لشدة حب الإنسان للمال، حتى أنه لَيُتْعِب نفسه في سبيل تحصيله، فيجعل راحته وسيلة ومطية لتحصيل المال. وسَمَّى سبحانه وتعالى هذا العمل أنه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليفيد أمرين: الأول: الإخلاص، فليس لشيء غير الله تعالى ربكم، لا للرياء، ولا للسمعة، ولا لغير ذلك. والأمر الثاني: أنه في دين الله ربكم، وطاعته، ووفق منهجه الذي شرعه عَزَّ وجل. بما يفيد أن من بذل في غير إخلاص لله تعالى، فلا حاجة لله تعالى فيما بذل. مما يبين أن الله تعالى يحب توحيده، بالإخلاص له جَلَّ في علاه.

وكذلك من بلاغة البيان أن أشار سبحانه وتعالى لتلك المذكورات باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ لإفادة التعظيم لتلك الأمور المذكورة من الإيمان والجهاد في سبيله سبحانه وتعالى، مما يكون بالأموال والأنفس. ثم يذكر سبحانه وتعالى النتيجة للمؤمنين بأسلوب المفاضلة ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ فذلك خير لكم من أن تتركوها أو تقصروا فيها. ثم يعطف سبحانه وتعالى على ذلك بالمزيد من التحفيز والحث، بقوله تعالى ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فإن كنتم قد علمتم واستوعبتم ما ذكرناه لكم، فإن ذلكم المذكور خير لكم من تركه والتهاون فيه. بما يفيد أن مَن علم هذا العلم على حقيقته فإنه لا يتركه أبداً، بل يستمر عليه في حياته كلها.

ثم ينتقل سبحانه وتعالى بالمؤمنين الْمُخَاطَبين إلى بيان المكاسب التي يحصلون عليها، مع تعددها وتنوعها. فقال تعالى ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فإن مَن عمل بما أمر الله تعالى فإن له من ربه عَزَّ وجل أرباحاً ثلاثة، عظيمة جداً. الربح الأول: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ يمحو ويزيل ربكم ما كان منكم من الذنوب التي حصلت منكم، فلا يعاقبكم عليها، وذلك بمحوها وسترها. والربح الثاني: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ ويدخلكم في الآخرة جنات من البساتين العظيمة، التي ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حيث تجري من بين أشجارها الأنهار المتدفقة. وأما الربح الثالث: فهو ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ فهي مساكن موصوفة بالطيبة التي لا يمل منها الإنسان، بل يسعد بها سعادة لا تنقطع ولا تنتهي. فقد جمعت دلالة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ معاني الطيب وأوصافه ودلالاته التي لا حصر لها، وهو كل ما تطيب وتفرح به النفس وتبتهج، كما أن مكان هذه المساكن أنها ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي في وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع. وهي جنات استقرار وثبات، قال أبو عبيدة أي: في جنات خُلْد،

يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[١] وعَدَنَ بالمكان: أقام به، وعَدَنَ بالبلاد توطنها. وعَدَن الأرض: سَمَّدَها. فهي جنات دائمة لا نهاية لها.

ومن دلائل ﴿عَدۡنٍ﴾ أنها جنات إقامة. أي يقيمون فيها إقامة أبدية، خالدين لا يموتون فيها، ولا يُخْرَجُون منها. فيتنعمون بجميل ولذائذ ما فيها، وهي جنات استقرار وثبات. وتعني كذلك وسط الجنة الذي هو أعلاها، أي: أعلى درجة في الجنة، وسقفه عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[٢] فإنه سبحانه وتعالى محقق للمؤمنين والمؤمنات جنات من البساتين التي تجري من بين أشجارها الأنهار المتدفقة، وأن سكناهم فيها للخلود الذي لا يزول أبداً.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بقيمة ومنزلة هذا الربح العظيم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فذلك الموعودون به هو الظفر العظيم الذي لا يعدله ظفر ولا فوز بعده. فهو منتهى الفوز وأعلاه وقمته وتاجه. وصفة ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ تبين فخامته وكثرته وسعته، وسروره وبهجته التي ينعم بها المؤمن نعيماً لا ينقطع، ولا ينقص.

وقد نَوَّه عنه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ لإفادة التعظيم لتلك المكاسب من مغفرة الذنوب، ودخول الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، والمساكن الطيبة التي يسعد بها الإنسان سعادة لا تنقطع. فإنها نعمة من الله تعالى لمن جاهد نفسه على طاعة ربه. وقام بحقوق الدين. اللهم إنا نسألك الفوز العظيم الذي ليس بعده فوز. فإنه هو الفوز الحقيقي، لما فيه من الحظ الجزيل، الذي لا حظ بعده.

وبعد أن أظهر تبارك وتعالى الفوز في الآخرة بالجنات والمساكن والأنهار التي تجري حلالها وبينها، يعدهم سبحانه وتعالى بأخرى ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ فيحفز ربنا جَلَّ في علاه المؤمنين بوعوده القاطعة، والمتحققة لهم في الدنيا قبل الآخرة. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وأخرى من الفوز والعلو مما تحبونه في الدنيا من النصر على الأعداء، والفتوحات القريبة العظيمة. وعموم البشارات للمؤمنين بكل خير.

وقد بدأ البيان الكريم من الله تعالى بدلالة ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ التي تفيد الإضافة على ما سبق الإخبار به من الوعد بالجنة. ووصف هذه الأخرى بأنها مما تحبونه ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: نوع تحبونه، وتتمنون تحققه،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣١٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/١٣٠) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣١٨) ملخص

وهو ﴿ نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ انتصار عام وساحق لكل الأعداء، بأن يكون لكم العلو، والنصرة، والعزة، ولهم الهزيمة والذلة. وكذلك لكم من الله تعالى ﴿ وَفَتۡحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي: فتح البلدان، والتوسع في أملاككم، ونشراً للدين. ليشمل بذلك الفتح: فتح مكة، وفتح بلاد فارس، والروم، وغيرها من الفتوحات. وقد تحقق ذلك كما وعد عَزَّ وجل. وفي تحقق هذه الوعود حجج وبراهين على أن هذا الدين هو دين الله تعالى، وأن هذا القرآن كلام الله تعالى، وأن هذا الرسول عليه الصلاة والسلامً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهي حجج وبراهين قائمة وثابتة إلى أن تقوم الساعة.

ثم ختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة ببشارة عامة لجميع المؤمنين. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فهي بشارة عامة بكل خير، بما يدفعهم ويشجعهم على الثبات على دين ربهم، والتمسك بتعاليمه وتشريعه. ومن دقائق البيان أن ورد سياق التبشير عن طرق الأمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشر بها عباده المؤمنين. فقال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وفي هذا تعظيم لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه هو المعني بالنقل عن الله تعالى لعباده. كما ورد التبشير بصيغة العموم، ليشمل خير الدنيا والآخرة، من النصر والتوفيق، والمعية لهم من ربهم تبارك وتعالى في الدنيا بكل خير، وفي الآخرة بالجنة وحُسن النعيم. وهي نعمة من الله تعالى أن يخص عباده المؤمنين بهذا التبشر العظيم.

ثم يختم الله تعالى سورة الصف بتوجيه المؤمنين بأن يكونوا أنصاراً لدين ربهم سبحانه وتعالى، بمثل ما كان عليه الحواريون مع رسولهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. فقال سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ يا من آمنتم بربكم وبرسوله صلى الله عليه وسلم، واتبعتم دينه، والتزمتم شرعه، كونوا أنصاراً لدين ربكم، كما كان عليه الحواريون مع رسولهم عيسى عليه الصلاة والسلام.

وقد بدأ الله تعالى مخاطبته للمؤمنين بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، التي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به. وفي مخاطبتهم

بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ثم أورد سبحانه فعل الأمر ﴿كُونُوٓاْ﴾ بما يفيد ويقتضي الوجوب بأن يكونوا ﴿ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ أي: مناصرين لدين سبحانه وتعالى، ومناصرين لرسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن مناصرة لله تعالى هي بمناصرة دينه تبارك وتعالى. وفي دلالة هذا اللقب ﴿ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ ما يبين المنزلة الرفيعة، والمكانة العظيمة. وبما يعني حثهم على ابتغاء هذه المنزلة العالية والرفيعة. بأنهم أنصار لربهم حين ينصرون دينه. وهو لقب ومنزلة رفيعة. ثم يحثهم سبحانه وتعالى على ذلك من خلال التبصر فيمن كان قبلهم، وهو شأن الحواريين مع رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ كمثل عيسى عندما خاطب الحواريين. والحواريون هم الخواص الأصفياء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الحواريون: أصفياء عيسى[١] فوجه عيسى عليه السلام سؤالاً لخواصه ليحدد ويعين متابعيه ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ من منكم يريد أن يكون ناصراً لدين الله تعالى؟ سؤال تقريري، يريد أن يقرر به تحديد وتعيين المناصرون له ممن آمنوا به. ليفيد أهمية التأكد والتثبت. وأخذ الموافقة من المعنيين بالأمر والشأن.

ومن الفوائد الدقيقة من قوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أنه لم يقل: من معي؟ أو من يناصرني؟ بل ربط نصرتهم له بنصرة الله تعالى ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لتقرير عبودية النصرة بأنها لله تعالى، وتخليصها من أي شائبة يمكن أن تكون. مما يفيد أهمية الإخلاص، وأهمية التذكير بالإخلاص لله تعالى، حتى في الأمور العامة بين المؤمنين، كمثل اجتماعهم على رجل واحد ليسوسهم في أمر من الأمور. فإنه يستوجب أن يكون العمل كله لله تعالى، وأن يرتبط الأداء والاستجابة لله تعالى. وعندما يتحقق هذا التَّوجُّه، تتوحد القلوب، ثم تتوحد الإرادة، لأن الْمُوجِب لذلك هو القاسم المشترك، الذي تدور حوله المصالح والأهداف. ثم يتحقق الإنجاز والنصر.

فأجاب الحواريون رسولهم عيسى عليه الصلاة والسلام بالمبادرة السريعة، كما قال الله تبارك وتعالى عنهم ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ فكانت الإجابة مستوفية لسؤال عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ نَحۡنُ

(١) وقيل غير ذلك، وقد تناولتها بعض كتب التفسير، وجمعها ابن الجوزي، زاد المسير (١/٣٣٥-٣٣٦)

﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ نحن المناصرون لدين الله تعالى. وقد كانت النصرة مبنية على الإيمان بالله تعالى، وليست لأي سبب آخر، حيث قالوا ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ فنفوا كل سبب يتنافى مع الإيمان، أو يمكن أن يتوهمه متوهم، أو يظنه ظان. وهذا من جميل الإجابة المستوفية لِمَا يُزيل كل لبس ووهم في التأويل. وهذا من فضل الله تعالى على عيسى عليه الصلاة والسلام أن جعل له أنصاراً، وكذلك هو فضل من الله تعالى على الحواريين أن هداهم، وجعلهم أنصاراً لنبيه ولدينه. ومما يفيد: كونوا أيها المؤمنون مع رسولكم في البيعة كما بايع الحواريون رسولهم عيسى عليه الصلاة والسلام. فلكم فيهم أسوة حسنة. مما يبين أهمية الأسوة والقدوة، وأثرها.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى حال بني إسرائيل مع رسولهم عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فقد آمنت جماعة من بني إسرائيل ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ وتمسكت بالكفر جماعة منهم، فلم يستجيبوا جميعاً. بل آمن فريق منهم، وكفر الفريق الأخرى، فلم يستجيبوا لعيسى عليه الصلاة والسلام ولمن معه من الحواريين. مما يبين أن الشأن في الناس هو الانقسام والاختلاف على الحق بالرغم من وضوحه وبيانه. فقد انقسم بنوا إسرائيل على رسولهم عيسى عليه السلام كما انقسم الناس على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يفيد العبرة من ذلك، وأن هذا هو شأن الأمم مع أنبيائهم.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذا الانقسام لم يؤثر على دينه وعلى رسوله عيسى عليه السلام وعلى من آمن معه من بني إسرائيل. فقال جَلَّ شأنه ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ فقد أعَنَّا المؤمنين بنصرتنا لهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فأصبحوا بعون الله تعالى غالبين عليهم، حتى أصبح الظهور والتمكين هو لرسول الله عيسى عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين، وأن الخسارة والذلة كانت للكافرين. مما يفيد: وكذلك سيكون الأمر والشأن مع رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فسيكون بمثل ذلك التأييد والنصرة من ربهم لهم.

فأفاد هذا البيان من الله تعالى بأن عليكم أيها المؤمنون بمتابعة رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن تمتثلوا له كما امتثل الحواريون لرسولهم عيسى عليه الصلاة والسلام. ولا يضركم انقسام الناس، فإن الناس منقسمون اليوم كما انقسموا من قبل على عيسى عليه السلام، فمنهم كافر ومنهم مؤمن. وأن النصر والتأييد من الله تعالى للمؤمنين. فكما نصر عيسى عليه الصلاة والسلام واتباعه الذين آمنوا معه، فإنه سيتحقق كذلك النصر لكم. ويكون الظهور والغلبة لكم على من كفر. لأن هذه سنة الله تعالى في عباده. فأيقنوا بالنصر والتمكين والظهور والفوز. كما أخبرناكم بحال من سبق. مما يبين أهمية الوعظ بمن سبق، فإن فيها إخبار بالواقع، وبيان لقوة الله تعالى، ونصرته للمؤمنين في كل حال، مهما تكالبت عليهم الأمم، لأن النصر من الله تعالى. وهذا يغرس في المؤمن قوة اليقين. ويُعَلِّم المؤمن أهمية التوكل على الله تعالى، مع الاستقامة الجادة. وأن نصر الله تعالى كائن

للمؤمنين جماعات وأفراداً، وفي جميع ضروب الحياة. فواجبهم الاستقامة والتوكل على الله تعالى، والدعاء، ولزوم هذا الدين العظيم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الصف. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.